

## ولا ترابه !

للأستاذ عباس محمود العقاد

—\*—

قلت فيما كتبت منذ أسبوعين عن رسالة الأديب أنني أستعبد بالله من اليوم الذي تتوقف فيه أقدار الأدباء على مقاييس الدولة ، لأن سيطرة الدولة على أقدار الأدباء معناها إخضاع الفكر الإنساني للعرف الشائع منافاً إليه إجحاف الهوى والمحابة ، وليس من وراء هذا الإخضاع خير للفكر ولا للأديب

إن تقويم أعمال الموظفين من أخص أعمال الدولة ، لأن الوظائف تجري على قياس معلوم في نطاق محدود ، وليس فيها مجال للتصديق ولا للاغتراف ولا لاختلاف المذاهب والشروح

ومع هذا تبحث عن الإنصاف في محاسبة الموظفين فتري عشرين مثلاً للإجحاف والإهمال والنسيان وسوء التقدير إلى جانب مثل واحد من أمثلة الجزاء الحق والتعطاس المستقيم

فكيف تكون الحال في تقويم الأدب والأدباء ؟ وكيف تكون الحال في الجديد من المقاييس الأدبية ، ولا خير في المقاييس الأدبية إن لم يحسب فيها حساب التجديد والإبداع ؟ وكيف تكون الحال في الرأي المستقل والخلق المستقل والعمل المستقل ، ولا خير في الأدباء إن لم يكن لهم استقلال في الآراء والأخلاق والأعمال ؟

أحسب أنني تحدثت بالبداية يوم استعنت بالله من تسليط الدولة على مقاييس التفكير وأقدار المفكرين

ولكننا في البلد الذي « من قامه المبرى فيه وجب عليه أن يشرع بترابه ... » ، فلا عجب أن يشغل ذلك المقال على كثير من أصحاب الأطلاع والآمال ، وأن يأتى بعض الذين كتبوا في الصحف وبعض الذين كتبوا إلى « إلا أن يكونوا كتاباً » أميرين « ... فإن لم يكونوا أميرين فلا أقل من التراب وما شابه التراب

ويكتب إلى من يقول إن مقاييس الدولة في مصر إن تدوم على ما أسسها من قبل أو يصيها الآن من التيوب ، فهي في الغد

كفيلة بحسن التقويم ، متى حسن التقويم فلماذا هذا الحذر من الجور القديم ؟

وتشاء المصادفة أن أقرأ هذا وأقرأ معه فصلاً مسهباً عن « الأرسين الخالدين » في فرنسا منقولاً في المجلة الإنجليزية « العصر الحلي » Living Age عن الكاتب الفرنسي هنري بلاي Henry Bellamy يتناول فيه مجمع فرنسا المشهور وأساليب اختيار الأرسين الخالدين من أعضائه ، فإذا هي حال لا تمنى تكرارها في بلادنا على قرط الحاجة فيها إلى التشجيع والإعطاء عن بعض الميوب .

وحبك من تلخيص هذه الحالة أن تعرف أسماء الذين استثناهم المجمع من زمرة الأدباء الناهين وبينهم أمثال : مولير ، وروسو ، وريدرو ، وميرابو ، وأندريه شنييه ، وستندال ، وفولوير ، وجوتيه ، وبودير ، وميشليه ، وفولين ، وميلارمييه

وفي وسعنا أن نضيف إليهم ديكرت ، ومالبرانش ، وباسكال وبومارشيه ، وهلباخ ، وزولا ، وموريلان وغيرهم من أدباء هذه الطبقة الذين عرفهم العالم بأسره ولم يعرفهم المجمع الأدبي في بلادهم !

حبك من تلخيص تلك الحالة أن تعرف أسماء هؤلاء وأشياء هؤلاء ، بعد أن مضت ثلاثة قرون على نشأة ذلك المجمع في عهد الكاردينال ريشليه ، فإذا أغنى وجود المجمع واعتراف الدولة به في إنصاف ذوي العقول والقرايح والأقلام ؟

نعم إن أمحايبا الخالدين قد اعترفوا بأقدار فولتير ، ولافونتين وريشان ، وأماول فرانس ، وأناس من طرازهم فتفتخر بهم الآداب الفرنسية والآداب المالية ...

ولكن متى اعترفوا بأقدار أولئك الأقطاب الأفذاذ ؟ إنهم لم يعترفوا بهم إلا بعد أن اعترف بهم « رجل الشارع » كما يقولون ، وشاع ذكركم في الأقطار الغربية والشرقية ، فلم يكن للخالدين فضل على غير الخالدين في تقويم القيم وتصحيح الموازين فإذا كانت مجامع الدولة على منوال الأكاديمية فرانسية تجهل من جعلت وتنفى من نسبت وتشكر من أنكرت ، ثم ننظر إلى من شجعت لهم بالنفصل فإذا هم مشهود لهم بفضلهم قبل أن يصلوا إل عتباتها ، فإغنى بني الإنسان بواقفي أصحاب القرايح والأذهان

من ذلك انقياس وذلك الميزان : وما أولانا أن نرجع إلى « الأسل »  
وأن نكتفي به دون ما عدناه. إذا كان الأصل هو رأى القراء والتبع  
اللاحق به هو رأى الخالد من أولئك الأعضاء الأحباء !

\*\*\*

قد يقال إن الكتاب والشراء يستفيدون الجوائز التي توزعها  
الدولة على أصحاب الآثار الجديدة والطرائف البارة في كل عام  
فإن قيل هذا فلنم أن الأعضاء الخالدون لا يقرأون الجديد .  
وقد قيل إن الأديب المشهور ألفريد دى ثيني زار « الخالد »  
رويه كولار ليطلب منه الترقية والشهادة نسمع منه رأيا لم يعبه ،  
فسأله : كيف تحكم على كاتب لم تقرأ سطرًا واحدًا من كتبه !  
فأجاب الخالد وهو راض عن جوابه : يا صاحبي ! إننى لم أقرأ شيئًا  
قط منذ ثلاثين سنة . وحسب من كان في عمري أن يعود  
إلى مراجعة الأقدمين حينًا بعد حين .

قال دى ثيني : « إذن كيف تبدى رأيك في الجمع يا سيدى ؟ »  
قال الخالد متعجبًا : « كيف أبدى رأيي ؟ هذا من شأنى .  
إننى أذهب إلى هناك ولا يمتنى أن أخبرك عن طريقي في إبداء  
رأى ، ولكننى أبدىه ... »

وقال كاتب المقال الذى أشرنا إليه والمهدة عليه : إن الشاعرة  
لويس كولى التي عاشت في عهد الامبراطورية الثالثة وأنمت  
بالسعادة على كثير من الكتاب والشراء تذكرت يومًا أنها  
لم تحضر قصيدتها لجائزة الجمع ولم تشأ أن تضع عليها تلك  
الجائزة ، فاهو إلا أن دخل إليها فلوير وبويليه زائر حتى أفضت  
إليهما بهما ، فما زاد الخيثنان على أن فتحا دواوين لاسرتين ونقلتا  
منها مئات السطور من هنا وهناك ووصلا بينها على ما يقتضيه  
حسن الحك والصياغة ، وأرسلا القصيدة إلى المحكين فظفرت  
بالمجزاء والثناء وتهنئة الأعضاء !

ثم تحسب مقادير هذه الجوائز التي توزع بهذا الميار وتحسب  
الأموال التي تودع المصارف لاستغلالها باسم الجمع الموقر ، فإذا  
هى جدول صغير من ذلك الخضم المنزى على عمدة ذلك الكاتب  
الأديب ، والمهدة كلها فيما تزويه هنا عليه !

أما أعمال الجمع التي تصدى لها منذ إنشائه فمجم لا يعد  
من خيرة المعاجم يسهل الاستغناء عنه ويبدو نقصة كلما فرغ من

طبعه فيعاد تنقيحه وتأليفه ، وإلى جانبه كتاب أجرومية مزينة  
الأولى أنه مشحون بالأخطاء النحوية والصرفية ، بدأوا به في القرن  
السابع عشر ولم يفرغوا منه إلا منذ دسع سنوات ( ١٩٣٢ )  
وقد عهد إلى الجمع يوم إنشائه في إصدار « قاموس تاريخي »

فصدر الجزء الأول منه سنة ١٨٦٥ منتهيًا بكلمة Actualité ،  
وصدر الجزء الثاني بعد ثلاثين سنة ، وسيتمه الجمع على هذا  
القياس حوالى سنة ٤٨٥٥ بعد الميلاد

ولعل القارى يذكر ما يجرى في الشركات والجماعات الخيرية  
والحكومية التي يندب لها « كاتب مر » أو « وكيل عام » .  
فإن الشأن الغالب عليها أن يستبد بها كاتب السر أو الوكيل العام  
بعد حين فلا يقع في ملكه إلا ما يشاء

فهذه العادة الغالبة هى بيننا التي تنلب على الأربعين الخالدون  
فلا يرمون ولا يتنقصون إلا بمشيئة من كاتبهم المختار ... حتى  
قال سان ييف : إن هذا الكاتب « يحكم وبلى » في وقت واحد  
خلافًا للملك الدستوريين !

\*\*\*

كل هذه المازل يطها الأعضاء الخالدون ويملسون  
أنها شائنة على ألسنة الكثيرين ، ولكنهم يحميون هازلين بلسان  
فوتينيل : « نحن سخرة الآخرون حين نكون أربعين ،  
ولكننا سيودون مقدسون كلما أصبحنا تسعة وثلاثين ... »  
يريد الشاعر أن الرشحين يتعلقونهم وشئون عليهم كلمات  
واحد منهم ، فأصبحوا تسعة وثلاثين وراح الطامعون يترامحون  
على الكرسي الفارغ ، ولكنهم بعد هذا سخرة الآخرون  
كلما بلغوا تمام العدد القدور ، ولا ندرى لماذا يقف الخلود  
والخالدون عند الرقم أربعين !

\*\*\*

فالمجامع « الرسمية » جميعها على هذا النمط أو على نمط قريب  
منه بعد حذف المبالغة الفكاهية التي لا تقوى على تبديل  
الحقائق التاريخية !

وغوى هذا أنها إذا أرادت لمرقان الأتقار في إبان نبوغها  
فهي لا تجدى ولا تنصف ولا تزال متخلفة وراء الصفوف  
بعد أن يفرغ القارئون من الإعجاب ويفرغ للمحبون من التنويه